صرخة .. أية صرخة !

صباح الخير

انت الجالس على الصفحة المقابلة، لا اعرفك. وذلك المقرفص على الصفحة قبل الاخيرة، لا يعرفني. ثمة سيدات وسادة محترمون آخرون من حولنا. مثقفون، فنانون، مفكرون، كتاب وشعراء، وقد تكون هنا ايضا راقصة باليه متقاعدة. لماذا متقاعدة؟ لان المحترفات لا يجدن الوقت الكافي بين الحركة والاخرى وبين البروفة والعرض الاول، للتفكير في فلسطين او تايلند او هونولولو. ربما هونولولو، لمكانتها السياحية المرموقة، انما ليس فلسطين.

وصباح الخير

انت تفكر بفلسطين، لذلك وافقتَ على الكتابة في هذا الموضوع. اما انا فقد وافقت على الكتابة لا لانني افكر بفلسطين، بل لانني افكر فيك انت. نحن لا نفكر بفلسطين نحن نعيشها. لذلك فنحن نفكر في حياتنا، في وجودنا. ولان هذا الوجود متداخل كثيرا في الدمار - والموت، فان الفلسطيني يعيش الحياة ويعيش الموت - اذا جاز التعبير، وهو - استطرادا - يعيش البناء ويعيش الدمار بالقدر نفسه.

ولأنك يا صديقي الذي لا يعرفني او لا اعرفه، انسان محترف، ولست متقاعدا (اغلب الظن انك لست راقص باليه؟)، فانني اجد قدرا من الجرأة لمجاهرتك بسر تجهله. تجهله، لانه ليس واقعة سياسية ولا هو حدث تاريخي او قرار في هيئة الامم او مشروع قرار في مجلس الامن.

أود اقتناص الفرصة لمجاهرتك بخوفي من الواقع الدقيق، ومن الصورة غير الدقيقة. ولا بد لي من الاعتراف، اولا، باننا نحن الفلسطينيين ايضا، اسهمنا في خلق صورتنا غير الدقيقة على الاطلاق.

فالصورة الرائجة للفلسطيني هي صورة المقاتل، الفدائي المقاوم، السجين، فتى الانتفاضة الذي يواجه الدبابة بالحجر، السيدة التي تشيع ابنها الشهيد وهي تزغرد وتغني اناشيد الزفاف، والشيخ الذي ينذر حفيده للبطولة والجهاد، والطالب الذي يتعلم فن النضال اكثر مما يتعلم الالكترونيكا.

باختصار، فان صورتنا - صورتي، في ذهن الرأي العام العالمي المتحضر - (بالطبع فأنا استثني العنصريين والهمج!) - هي صورة القوة.

وهي صورة غير دقيقة لانها غير صحيحة، او انها غير صحيحة لانها غير دقيقة - لا فرق. ذلك انني انسان مسكون بكثير من الخوف ايضا. وتجاهل الخوف الذي فيّ ينتقص من انسانيتي. وهذا الامر يغيظني ويغضبني، وكثيرا ما يصيبني بنوبات حادة من السوداوية وشهوة الانتحار. أنذاك تمد لي القصيدة يدها لتنتشلني. بيد ان الفلسطينيين ليسوا جميعا شعراء او فنانين، ولذا فان اغلبيتهم الساحقة تظل بحاجة ماسة الى اليد التي تمتد من الغيب، او من الواقع، (يستحسن، من الواقع) لانتشال انسان يكابد ظلما تاريخيا مزمنا، من

هوة اليأس التاريخي المزمن.

ولأن قصيدتي وحدها لا تكفي، فانني افكر فيك انت ايها الصديق الذي لا يعرفني ولا اعرفه.

ومن أجل الدقة، فقد لا تكون صديقا حقيقيا، او قد تكون صديقا من وجهة نظر لا تتفق مع وجهة نظري الشخصية. ولا بأس في ذلك. لا بأس على الاطلاق. فالانسان الذي يحترف الالم والهم والمشاركة، هو انسان قابل للتفاهم وارجو الا اكون ساذجا او متطرفا في التفاؤل حين ادعي اثنا -انت وانا - قابلان للتفاهم.

وصباح الخير.

بلا زهور وبلا قهوة الصباح. فلا مكان لمزهرية ولا موضع لمائدة بشرشف وردي على شرفة ربيعيّة...

ولا شرفة ندعوكم اليها. ولا مشهد من الشرفة التي لا ندعوكم اليها. ثمة طائر اسطوري اسمه "اباتشي" يسد منافذ المشرق. وطائر آخر لا يقل أسطورية يدعى "ب ٥٢" يغلق علينا شباك الغروب، مع حظر التجول المفروض على شعب بأسره، على التلاميذ والعمال والفلاحين والعشاق. الوطن وحده يستطيع هنا ان يتجول وباتجاه واحد فقط، من قلوبنا الى ايديهم ومن ايدينا الى جرّافاتهم ومن قطعان ماعزنا الكنعاني الى مسالخهم التكنولوجية - الالكترونية - الليزرية.

لا تقولوا سياسة! انا لا اتحدث هنا في السياسة. كان جورج أورويل قد وصف قرننا هذا بانه قرن سياسي وانني لأتفق معه تماما غير انني هنا اتحدث عن الخوف - خوفي - لا عن السياسة.

واذا كانت صورتي غير الدقيقة عندكم تخيفني فان صوتي غير

الواضح لديكم هو الاخر يخيفني.

لمانا نتوهم ان النملة لا تصرخ حين ندوس قدمها؟ يخيّل لي أنها تصرخ بصوت غير مسموع او غير مفهوم لدى البشر. وانا ايها السادة نملة بشرية في مقاييس سياسة هذا القرن. يدوسون قلبي وأصرخ. يدوسون دمي وأصرخ. يدوسون أزهاري وسنابلي وعظامي المكسرة وأصرخ . غير ان صوت النملة - صوتي - لا يسمع في مقاييس بشر هذا القرن!

لديّ حجتي وذريعتي وبرهاني غير انني لا املك ما يملكون من مادة قادرة على تعذيب ضمائركم. وهم يحملون هذه المادة من سفارة الى سفارة ومن منصة دولية الى منصة جماهيرية ويعرضون مادتهم مثلما يعرض وكلاء المبيعات پروسپكتات بضائعهم حيث الصور المثيرة، بالألوان وبالأسود-أبيض، وينجح وكلاء مبيعاتهم ويحققون ارباحا سياسية (وغير سياسية) طائلة. واظل انا النملة البشرية في مقاييس العصر وحيدا مع صراخي غير المسموع، مع دمي غير المرئي ومع خوفي المجهول.

ايها الاصدقاء (بمشيئة الله)، حين تكون الكتابة مكرّسة لذاتها فانها تصبح مجرد ثرثرة، كتلك التي يفرزها السائر في البرية لتسلية ذاته وللتحقق من صحة خطاه، موقعا ومدى واتجاها، وتستمد الكتابة مشروعيتها، كما ارى، حين تتحول الى فعل او حين تستهدف الفعل، في اقل توقع. وكم كنت اتمنى ان تتحول كتابتنا هنا، كتابتكم وكتابتي، الى فعل، اي فعل، والى صرخة في اقل توقع. ذلك ان الصرخة التي تستدعي القشعريرة تتطور حتما الى فعل. وكم ارجو ان يستحضر خوفي صرخة منكم. اية صرخة. فهل من صرخة لي عندكم. صرخة واحدة من اجل المي وخوفي، من اجل صراخ النملة التي هي انا

بمقاييس هذا العصر الذي ليس هو عصري بعد؟ هل من صرخة؟

وصباح الخير...

هناك من يهرب في مأساتي وقضيتي، من عدالة واضحة على الارض الى عدالة غامضة في السماء. ويتعامل مع الله باعتباره موظفا في دائرة الاستيطان، ولا بأس من جهتي في عدالة السماء الالهية الواضحة والممكنة في حالة وضوح العدالة الارضية الانسانية.

لقد قال الشاعر والفيلسوف العربي الكلاسيكي ابو العلاء المعري:

في القدس قامت ضجة ما بين احمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح
كلٌ يؤيد دينه يا ليت شعري ما الصحيح؟

وقد اراد المعري بهذا انتزاع فتيل الفوضى لا اطفاء جذوة الايمان. فلا جدال في ان الخير المطلق هو جوهر الاديان والشرائع قاطبة انما الجدال هو حول استخدام الاديان والشرائع وتطويعها لتبرير الشر المطلق.. الشر الذي يمسخني نملة بشرية لا يسمع احد صراخها ولا يملك احد الجرأة الكافية لادانة حذاء عسكريّ يسحقها اكثر من اربعة عقود من الزمن.

وقضيتي ايها السيدات والسادة ليست قضية دينية ولا هي قضية صراع بين الشرق والغرب ولا هي قضية تفاوت حضاري ونزاع قانوني او تاريخي او جغرافي.

كل هذه الامور مجتمعة تشكل القشرة اما اللب والجوهر فهو التضاد بين شهوة مسخ الانسان وبين الرغبة في بلورة هويته على شكل ارقى واجمل. ولن يكون الاعتراف بعدالة قضيتي قرارا قانونيا لصالحي، بل هو قرار اخلاقي لصالح الجنس البشري، لصالح نظام جديد في العلاقات بين البشر يعتمد حرية الفرد وكرامة الذات الانسانية، ويعمل على تركيب صورة جديدة لأفق جديد قبالة الحلم القديم الذي قرع من اجله الناقوس ورفع الاذان، ومن اجله كانت جميع الشرائع والمذاهب ومن اجله ذهب ملايين من الشهداء على مرّ العصور، الحلم القديم ابدا والجديد ابدا: الحرية، العدالة، السلام.

ومساء الخير...

حيفا ١٩/ ٤/ ٩١

إشارة:

** كُتبت هذه المداخلة تلبية لطلب ناشرين فرنسيين وفي إطار استفتاء بين نخبة من المبدعين، من عدة اقطار، من أجل كتاب حول الصراع العربي - اليهودي والفلسطيني - الاسرائيلي، ينشر في فرنسا.